ليست تلفيقية ولا توفيقية

وانما انتقائية تكاملية

دكتور / سعيد اسماعيل على

هناك من الناس من لا يرون فى الدنيا الا الأسود والأبيض أو عندما تقول أن هناك لونا أصفر أو أحمر أو أخضر أو غير ذلك من الألوان الأساسية وصفوا ذلك بأنه (لا موقف) ، لأن الموقف هو فقط اما من الأبيض أو الاسود · وقد نجد البعض يسلم ـ على كره منه ـ بمثل هذا (التعدد) فى الألوان ، لكنه يظل (معتقلا) فكره فيها حتى اذا ما قلت بألوان أخرى مثل البرتقالى أو البنفسجى مثلا ، قالوا أنها عملية (توفيق) بين هـــذا اللون أو ذاك ، ولا جديد فى الأمر ، فالبرتقالى هو بعض من الأحمر والأصفر ، والبنفسجى بعض من الأزرق والأحمر ·

كذلك الموقف من المذاهب الفكرية والصراع الأيديولوجى فى عالمنـــا المعاصر ، فهناك أيديولوجيتان : اما تلك التى يسير الشرق السياسى وفقـا لها ، واما تلك التى يسير عليها الغرب السياسى ، بحيث اذا رفضت احداهما ، فلابد أن تكون قابلا ومنتميا الى الأخرى ، فاذا ما أكدت أنك لا تقبل هذه برمتها ولا تلك ، قيل أنك بلا موقف وبلا أيديولوجيا ·

واذا قلت أن فى كليهما بعض الجوانب الايجابية التى يصعب رفضها ، تكون الطامة الكبرى ، فالقبول يجب أن يكون للمذهب كله والرفض كذلك يجب أن يكون له كله ·· ان المذهب كل متكامل من الأجزاء والعناصر ، هذا مرتبط بذاك وبنى عليه ، ولا يفيد أن تأخذ قطعة من هنا وقطعة من هناك ، ولو فعلت ذلك وقلت أنك ستعيد التركيب لتنشىء بناء آخر ، فأنت اذن تقوم بعمليـــة (توفيق) ، هذا عندما يسود جو (الأدب) الكتابة والحـــديث ، ولو أردت الحقيقة لوجدت أن نتيجة الاعتراضات على عمليات (الانتقاء) ولـ (التكامل) و (اعادة التركيب) انما يضع هذه العمليات فى خانة (التلفيقية) ·

ان المسلمة الأساسية التى يقوم عليها هذا المقال ، هى أن الحقيقـــة الكاملة انما هى ملك لله وحده ، فهو الخالق المبدع لكل ما فى هذا الكون ،

ومن ثم فان فهم الانسان ووعيه انما هو (اجتهاد خاص) بجزء من الحقيقة أو ببعض أجزائها بحكم محدودية وسائل وأدوات الفهم والادراك بدليل ما تكشف عنه الدراسات العلمية يوما بعد آخر ، اذ أن هذه الاكتشافات تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أننا بالأمس كنا نتصور أننا نعرف (كل شيء)، فاذا بنا لم نؤت من العلم الا قليلا ..

وعلى ذلك ، فعندما يقف مفكرا أو فيلسوف ليقول انه يرى أن حقيقة الانسان هى كذا وكذا ، أو أن حقيقة التطور الاجتماعى هو كذا وكذا ..الخ فان الرأى الذى يسوقه ويقدم له الحجج والبراهين انما هو مجرد اجتهاد ورؤية خاصة له ، فحجته تنحصر فى حدود معينة ، ويصعب القول بأنه قد وصل الى الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا بأس من أن يظهر اتباع واتباع الأتباع يؤمنون بما يقول ، ويذهبون نفس المذهب ويضيفون عليه ويعدلون فيه ويكون حكمهم أيضا هو نفس الحكم : الاحتمالية ! .

ولأنه (اجتهاد خاص) و (احتمالية) ، و (رؤية من طرف واحد) نجد هذا الرأى الذى يسوقه المفكر لا يقتنع به آخرون ، ويبرز من هؤلاء من يذهب مذهبا آخر ، ويكون هذا شيئا طبيعيا .. لكن من غير الطبيعى حقا أن يزعم أحدهما أنه هو وحده الذى أبصر الحقيقة بتمامها وكمالها ، وأن الاخر لابد أن يكون مخطئا .

أننا نكرر هنا ذلك التشبيه الذى أورده ابن طفيل عندما قال أننا كبشر مثل مجموعة من العميان وقفوا حول (فيل) وطلب من كل واحد منهم أن (يحدس) ما هو الشيء الذى أمامه ـ ولم يكونوا على معرفة به ـ فمد واحد يديه وتحسس ما أمامه وكان أمام (سن الفيل) ، وقال أنه كذا وكذا . ومد آخر يديه وتحسس ما أمامه وكان أمام الذيل فقال بقول مختلف تماما .. وهكذا كل واحد ، فاذا ما تساءلت : هل أصاب هذا أم ذاك ؟ لوجدت أن كلا منهم قد أصاب (جزءا) من الحقيقة ، لكنه اذا زعم أن هذا (الجزء) يعبر عن (الكل) ، لوقع فى خطأ كبير .

فاذا ما جمعت رأى هذا ورأى ذاك فى دقة وتكامل بحيث لا تضع

(الذيل) أسفل (القدم) مثلا ، أو الفم وسط البطن ، فلا تكون العملية هى مجرد (توفيق) وانما هى (اعادة تركيب) من أجل الوصول الى وحدة متكاملة تقرب بك بقدر الامكان من الحقيقة ٠

وحتى يكون حديثنا فى العدد السابق من (دراسات تربوية) للدكتور عبد السميع سيد أحمد بعنوان (أزمة الهوية فى الفكر التـربوى فى مصر) ٠

وبداية ، فلا بد لى بصفة خاصة أن أسجل تقديرى الكبير لتلك العقلية الناقدة الثاقبة التى أبرزت هذا (العمل الفكرى) الذى اعتقد أن كل من قرأه لابد أن يشاركنى (المتعة العلمية) ، لما تبدى فى الدراسة من بصيرة واضحة وأفق متسع وثقافة متنوعة ووعى عميق ٠ انك تقرأها فلا تتصور أنها يمكن أن تكون لواحد يقف فى أول سلم هيئـــة التدريس الجامعى ، وانما هى لـ (أستاذ) حقيقى ، هذا اذا ألغيت من ذهنك (الكادر الوظيفى) ونظرت الى (الأستاذية) كقدرة ومهارة وفن وممارسة ٠

انظر اليه وهو يشير الى تلك الظاهرة المؤسفة التى تسم حياتنا الفكرية، وهى غياب النظرات النقدية التى تثير الجدل والحوار وتساعد على اثراء الفكر ونموه وتطوره وتصحيحه ، يقول بتعبيـــرات ذكية غاية فى البراعة وسلاسة الأسلوب وقوة المنطق وجمال العبارة :

« لعل من الملاحظ أن حياتنا الفكرية بوجه عام تفتقر الى حد بعيد الى مثل هذا الجدل ، ذلك جزء من أزمة الفكر فى وقتنا الحالى تعبر عن أزمة واقع شامل ٠ ان مؤامرة النسيان عن طريق الصمت جاهزة دائما ، حتى الأعمال الكبيرة التى يقدمها أعلام الثقافة فى عصرنا ، لا تنال من الاهتمام على الاطلاق ـ الا بعض الثناء هنا أو هناك ، ثم تصبح مرجعا لمن يشاء أن يعتمد عليها ولا يشتبك معها فكر آخر بالقبـــول أو الرفض فى كلياتها أو جزئياتها ، ص ١٢٢ ٠

ولا تملك حقا الا أن تصفق طربا من ذلك التشبيه ولكنه يبكيك عنـــدما يقول ـ مثلا) : حتى الجفا محروم منه ٠٠ يا ريتها دامت أيامه » :: فهـو يقول فى عبارة موجزة :

« أنه كما حدث تجريف للارض ، حدث تجريف للعلم ، حدث تجريف للارض الزراعية أصل مصر ورمز قيمتها الحضارية التاريخية التى لا تقدر بثمن فى مقابل القيمة النقدية التجارية التى تجرى وراءها الطبقة الجديدة النهمة · وحدث تجريف للعلم ففقد قيمته المستمدة من علاقته بالمجتمع والحياة وتطلع الانسان الدائم لكشف المجهول وصار يعامل بطريقة ذرائعية تتحكم فيه قيم السوق وانتاج الجملة وربما أيضا الغش التجارى واللامبالاة والاهمال لأنه صار (شيئا) مثل بقية (الأشياء) فى ظل ظروف العلاقات الاجتماعية الاقتصادية المتخلفة · ص ١٢٢ ·

ومن منطلق (التقدير) هذا ، أناقش قضية واحدة فقط ترددت فى دراسة عبد السميع ، وربما انطلقنا من هذه القضية لمناقشة بعض (التفريعات) المتصلة بها ، أما القضية ، فهى قضية (التوفيقية) ·

وتنطلق فكرة (التوفيقية) من ذلك الموقف الذى واجهـــه مفكرونا فى مطلع القرن التاسع عشر عندما واجههم اعصار الحضارة الغربية ، ذلك أنهم وجدوا فى هذه الحضارة أمورا لم يستطع عقلهم أن ينكر حجيتها وهى تلك العلوم الحديثة سواء فى المنهج أو المحتوى أو النتائج من كيميـاء وفيزياء ورياضيات وطب وهندسة وعلوم زراعية وبيولوجية هكذا ، كذلك ما اصطلح على تسميته بـ (المنجزات التكنولوجية) المختلفة ، بل ونظـــم الســياسة والاقتصاد ومظاهر الفن وأشكال الأدب وهكذا ·

ولأن (التطور) و (التقدم) سنة الكون والحياة ، واليوم لابد أن يكون غير الأمس ولابد أن يأتى الغد بما لم يكن حاضر اليوم ، كان على هؤلاء أن يأخذوا من مظاهر التحضر هذه ما استطاعت عقولهم أن تعيه وتستوعبه ·

لكنهم من ناحية أخرى مسلمون عقيدة وشريعة ، والاسلام بالنســـبة للمسلم ليس (مرحلة تاريخية ، تجىء ثم تنقضى ، وانما هو (منهج حياة) فى كليتها وشمولها ، مستمر باستمرار الزمان ، وممتد بامتداد المكان ·· ليست المسألة افتعالا وتعصبا ، ولكنها قضية الايمان ·· فما دام المفكر يؤمن بوجود الله خالق قادر مبدع ، وأنه هو الذى أرسل نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مبشرا ونذيرا باذنه وسراجا منيرا ، فلابد من التسليم بمحتوى رسالته · وعندما يقارن الانسان بين منهج دعا اليه الاله الخالق الذى يؤمن به ، وبين

منهج دعا اليه (مخلوق) ، فلابد أن يؤمن بالأول ٠ وما دام رسول الاسلام قد ذكر وحيا من ربه أن الاسلام هو خاتم الرسالات السماوية ، وأنه نبراس المؤمن الى ما شاء الله ٠٠ لكل هذه الاعتبارات ، فان موقف المفكر المسلم هنا أن ينظر الى الاسلام على أنه منهج حياة يستمر باستمرارها ٠

واذا كان مفكرونا قد وجدوا ما أشرنا اليه مما لم تنكره عقولهم فى الحضارة الغربية ، الا أنهم قد وجدوا فيها أيضا بعضا آخر مما تنكره العقيدة الاسلامية التى يؤمنون بها ٠٠ فكان المأزق الحضارى الكبير ، فكيف كان التفكير فى الخروج منه ؟

هنا كان التحدى الحضارى والعقيدى الذى يلخص حتمية الاجابة عن التساؤل الآتى :

كيف يمكن أن يظل الانسان مسلما يعمر قلبه بالايمان ، ويمسك بما لا يغضب ربه ويؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، وأن يستطيع فى الآن نفسه أن يعيش (العصر) بعلومه ونظمه واتجاهاته ؟

ان هناك من اختاروا الجانب الأول وحده ورفضوا الثانى ، وهناك من اختاروا الجانب الثانى ورفضوا الأول ، وكلاهما ظن انه قد حل المشكلة و (استراح) لموقف معين ٠

لكن الصعوبة الكبيرة كانت فى الموقف الثالث الذى رفض أن تكون القضية هى اما ٠٠ أو ٠٠ أبيض أو أسود وهو ينتمى اليه كاتب هذه السطور ولم تكن القضية أن (يجمع) الانسان الطرفين كما هما جمعا حسابيا ، والا فان هذا هو (التلفيق) بعينه لأن هناك فى هذا الجانب ما يتعارض ، وأحيانا يتناقض ، مع الاخر ٠ ٠ولكنها هى : كيف يمكن (الانتقاء) من هذا الجانب وذاك بحيث يمكن (اعادة التركيب) فى وحدة عضوية متكاملة تتسم بالاتساق والتناغم والانسجام ؟

وأقول الحق ، فان المعيار الأول والحكم الأول هو للعقيدة الدينية الاسلامية ٠٠ هنا نجد الحل ليس عسيرا اذا أبصرنا الفرق بين (الدين

الاسلامى) و (التراث الاسلامى) ، فالدين ـ عقيدة وشريعة ـ هـو ذلك الذى يتمثل فيما هو مدون بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، كما يتمثل فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم قولا وعملا ·· أما (التراث) فهو تلك الجهود التى بذلها علماء وفقهاء ومفكرون وفلاسفة مسلمون فكرا وعملا سواء بالشرح أو التفسير أو التحليل أو التجديد أو الاجتهاد والاضافة والتطور أو الممارسة ·

الأول ، وهو الاسلام عقيدة وشريعة ·· هناك ضرورة الالتزام الكامل بهما بالنسبة للمسلم ·

الثانى ، وهو التراث ·· لا التزام فيه ·· أنا نعرضه على عقولنا أن قبلته كان بها ، فان لم تقبله ، فلنا ذلك ·

ومع الأسف الشديد ، فان كثيرين ـ ومنهم عبد السميع ـ قد جمعوا بين الأمرين تحت اسم (التراث) ، فكان فهم يحيد ـ فى رأينا ـ عن صواب التشخيص والتحليل ··

ان الغزالى وابن خلدون والفارابى والقابسى والزرنوجى وغيرهم ، علماء كبار افذاذ ، لهم كل التقدير والاحترام ، لكن رأيهم ليس ملزما ، ورأيهم ليس حجة مطلقة ، فهم بشر اجتهدوا ، واجتهادهم قابل لأن يوصف بالصواب أو الخطأ · وما دام الأمر كذلك ، فلنا أن نقبل من آرائهم ما نشاء وأن نرفض منها ما نشاء وفق أدلة وحجج وبراهين ·

وأن يكون الخليفة المأمون قد فعل كذا وكذا ، وأن يكون المتوكل بالله قد نظم كذا وكذا ، وغير هذا أو ذاك من أئمة المسلمين وحكامهم ، فهو أمر أيضا ليس بملزم وان أمكن الاسترشاد به والاستفادة منه ·

وحتى يمكن (فهم) كلا من القرآن والسنة ، فلابد من الاستعانة بعدد من الدراسات والعلوم والتدريبات ومناهج البحث المتعارف عليها ·

وفى القرآن والسنة أمور ورد بشأنها نص واضح وصريح ، وهذه لابد من الالتزام بالانحياز لها وترك ما يتعارض معها ، لكن هناك أمور أخرى تحتاج الى اعمال العقل والاجتهاد والتفسير وخاصة تلك التى تتعلق بنظم

الحكم والسياسة على سبيل المثال ، فلم يحدد الاسلام هنا (شكل) الحكم ونظامه وانما وجهنا الى عدد من المبادىء والقيم التى يجب أن يقوم عليها ، أما التنظيم فلم يحدده لأن هذا أمر يتصل بتغير الزمان والمكان ، وما دامت علوم العصر الحديث قد أوسعتها بحثا ودراسة وحظيت بالتجريب فى هذا المجتمع أو ذاك ، فلماذا لا يستفاد منها مع التكيف والمواءمة ؟

اننا نرى هذا أمرا يتفق وطبيعة الانسان ومنطق التطـــور التاريخى والاجتماعى ٠

ان (التوفيق) هو صورة من صور (المصالحة) و (المسالمة) ، وليس هذا هو المنطق الذى يحكمنا ، ففى المصالحة والمسالمة تحكيم للرأى الآخر فى الموقف أما الانتقاء واعادة التركيب التكاملى ، فالتحكيم هو لنا بما يتفق واقتناعاتنا ومشكلاتنا وظروفنا ٠

ولسنا مع (الوسطية) لأن الوسطية انما هى (حيادية) سلبية لاتريد هذا ولا ذاك ، وانما تقف بينها حتى لا تصاب بما قد يصاب به هذا الطرف أو ذاك ، بينما نرى ضرورة الوقوف مع هذا الطرف أو ذاك وفقا لمتغيرات الموقف والعقيدة والمصلحة ٠

ونستمسح القارىء فى أن نسوق مثالا من « علوم الادارة »* لشرح وجهة نظرنا فى التفرقة بين (التوفيقية) و (التكاملية) القائمة على الانتقاء الارادى المبنى على نقد وفحص واختيار :

فهناك وجهة نظر تذهب الى أن الكفاءة فى العمل والعرض على القيام بالمهام المختلفة لتحقيق الانتاج من شأنه أن يعود بنتائج طيبة على العاملين بحيث يتحقق لهم الرضا والاشباع ٠ وهناك وجهة نظر ثانية تذهب الى أن القضية ليست مجرد انتاج والقيام بمهام ، اذ أن هذا انما يقوم به (بشر) فلابد من التركيز على اعتبارهم فى المحل الأول اذ أن هذا من شأنه أن يدفعهم الى الانجاز وسرعة الانتاج وجودته ٠

(*) هذا المثال أخذناه من دراسة ـ قيد التحرير ـ للدكتور محمد يوسف حسن أستاذ أصول التربية المساعد بتربية الاسكندرية ٠

الأولى تسمى (الادارة العلمية) ، والثانية (الادارة الانسانية) ٠

لكن هناك وجهة نظر أخرى وقفت على (الحياد) و (الوسط) ، وأن المسألة هى وفقا لما جاءت به اللوائح والتعليمات بحيث لا تتعلق المسئولية بانتاج أو أشخاص ، وانما بـ (قانون) يحكم سير العمليات ، وهذا النمط يسمى بـ (الادارة باللوائح) ٠

واذا مثلنا النظرية الأولى بخط احداثى أفقى والثانية بخطا احداثى رأسى ، فقد قسموا الخط الى ٩ نقاط ، وبالتالى يكون النمط الأول وهو المسمى ـ أى الادارى فيه ـ (المتفانى) Dedicated (١/٩) ، والثانى وهو المسمى بـ (المرتبط) Related (٩/١) ، أما هذا الحيادى الوسط وهو المسمى (المنفصل) Separated (١/١) ، كما يمثله الشكل التالى٠

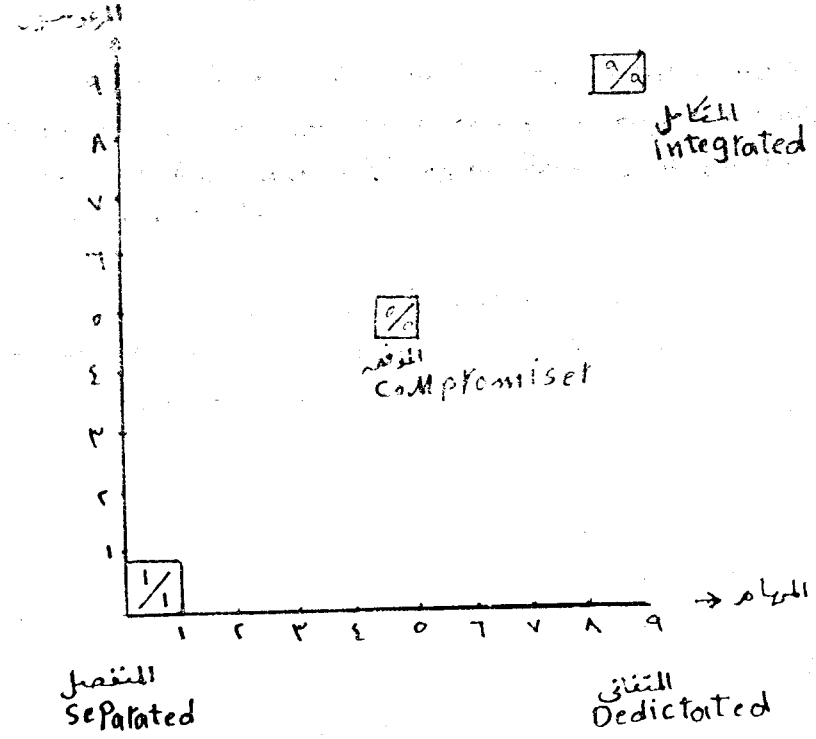

لكن هناك نمط رابع يأخذ قدرا من هذا وقدرا من ذاك ٠ انه لا يترك الأول لجان ممثلة ، نأخذ من هذا الطرف ممثلا ومن الطرف الآخر ممثلا حتى

نصل الى رأى لا يغضب هذا أو ذاك (حل يرضى جميع الأطراف) ، هـذا النمط هو النمط الموفق Compromiser ، وقد أعطوه من الدرجات (٥/٥)٠

أما النمط الخامس ، فانه لا يتعامل مع الموقف بطريقة حسابية : جزء من هنا مع جزء من هناك، وانما هو يرى أن القضية بالفعل لا يمكن أن تكون اختيارا بين (انتاج) و (بشر) ، فمن الذى يحقق الانتاج ؟ البشر ٠ ولكن ما يقيمة البشر بلا انتاج ؟ لا شىء ! لابد من صيغة هنا انتقائية تكاملية ، ولذا سمى النمط الموفق فى الادارة بأنه ادارة (عملية) ـ أقرب الى البراجماسية، وسمى النمط التكاملى بالادارة (الجماعية) :

فى النمط الأول « العبرة بالعمل المدرسى ٠
فى النمط الثانى ، العبرة بالمرءسين ٠
فى النمط الثالث ، العبرة بالبقاء فى الوظيفة ٠
فى النمط الرابع ، العبرة بالممكن ٠
فى النمط الخامس ، العبرة بما يجب أن يكون ٠٠

مثال آخر من (العمارة) :

فكبار السن منا يذكرون من غير شك بيوتنا ـ سابقا ـ تبنى بطريقة تتفق والظروف الجغرافية والثقافية الخاصة بمجتمعنا ، فالأسقف عالية ، والغرف واسعة لأن بلادنا حارة معظم شهور العام ، وهذا كان يساعد على (ترطيب) الجو ٠ والحرص كان واضحا فى أن تكون الواجهـــة الأساسية للنوافذ شـــمالية حيث الرياح تكون باردة أو لطيفة حيث تأتينا من أوربا وشمال غرب آسيا عابرة للبحر المتوسط ٠ كذلك كنت تجد الجدران سميكة لتحقق بذلك وظيفتين : جغرافية ، وثقافية ، وتتمثل الوظيفة الجغرافية فى أن الجدار السميك وخاصة من الحجارة أو الطوب اللبن تعزل الحرارة ، وتتمثل الوظيفة الثقافية فى أن هذا الجدار (يعزل) الأصوات وخاصـــة (الحريمى) عن الاخرين من الضيوف ، و (يعزل) أصوات الزوجين عن آذان الأبناء ٠

والنوافذ تنقسم الى جزء أسفل يمثل ثلثى المساحة وجزء أعلى يمثل الثلث ، يمكن فتح هذا الجزء الأعلى فيدخل الضوء والهواء و (يحجب) من بالداخل عن أن (يجرحهم) آخرون ٠٠

ونفس الشيء بالنسبة لأبواب الغرف الداخلية ·· وهكذا ثم جـــاء النموذج المعمارى الغربى ·· حيث المدن الكبيرة المكدسة بالسكان ·· الغرف ضيقة لأن بلاد الغرب باردة ، وكلما ضاقت الغرفة ، ساعد ذلك على تقبلها البرودة ، والاسقف منخفضة لنفس الغرض وكذلك النوافذ والأبواب ··

وليس هناك ـ فى ثقافة الغرب ـ عيب فى أن يرى آخر زوجا يقبـــل زوجته أو يعانقها ، وليس هناك عيب فى أن يســـمع الابناء غزلا بين الآب والأم ، ومن هنا كانت الجدران الزفيعة والنـوافذ والأبواب المختصرة التى تفتح ككل أو تغلق ككل ··

فضلا عن (العامل الاقتصادى) الذى يدحر أمامه أية تقاليد أو قيـم دينية أو ثقافية ··

وكما حدث فى مختلف المجالات ، تم اقتباس النموذج المعمارى الغربى دون أى (تكييف) لمواصفات الجغرافيا والثقافة ··

هل يعنى هذا ضرورة العودة الى النمط المعمارى الشرقى التقليـدى ؟ ليس تماما ···

فهناك متغيرات تفرض نفسها الآن ·· ارتفاع التكاليف ·· التكدس السكانى ·· النظريات العلمية المختلفة فى البناء التى تمكننا من اقامة المبانى شاهقة الارتفاع التى تحتوى على خدمات مختلفة ··

ولكن ، ألا يمكن (تكييف) البناء بحيث نســـتفيد فيه من النظريات العلمية الهندسية الحديثة مع مراعاة بعض القيم الثقافية التى نحرص عليها؟ هنا سيبرز لنا البعض ممن يقول : ولماذا يتحكم فينا منطق (الحريم) ـ مثلا ـ ونعتبر رؤية نسائنا (جرحا) و (عورة) ؟ وما العيب فى أن يرانا هذا أو ذاك نفعل كذا وكذا أو نقول هذا أو ذاك ؟

هنا نعود مرة أخرى الى قضية (الايمان) ، فاذا لم تكن مؤمنا ، فقل ما شئت مثل هذه التساؤلات ، ولكنك ان كنت مؤمنا ، فلابد من الحفاظ على مثل هذه القيم الثابتة بنصوص الشريعة ، وهى لا تشكل قيدا كما يحاولون تصويرها ·

ولقد بدأت بالفعل جهود بعض المعماريين تخرج بنماذج معمارية تتكامل فيها الطرز الاسلامية الشرقية مع الطرز الغربية الحـــديثة فى (انتقائية)

و (تكاملية) ذكية ، ويمكن مشاهدة ذلك فى بعض بلاد الخليج العربى مثل الأمارات والمملكة العربية السعودية ٠

من هنا تأتى المفارقة الكبيرة بين رأينا ورأى صديقنا عبد السميع فى موقفه من (المشروع) الذى اقترحناه فى سلسلة محاضراتنا للدبلوم الخاص بتربية عين شمس عام ١٩٨٣/٨٢ بعنوان (نظرات فى الفكر التربوى المصرى) حيث حاولنا أن نحدد أسسا تقوم عليها هوية الفكر التربوى فى مصر ، هاجمنا من خلالها محاولة الاقتصار على احدى الثنائيات الشائعة بيننا : فرد ومجتمع ، عروبة واسلام ، مصرية وعروبة ، خبز وحرية ٠٠ الخ ٠

ان ما أكدناه نحن ، هو ضرورة (الوحدة الاندماجية ـ اذا صح هذا التعبير السياسى بين كل طرفين لايماننا ـ كما أسلفنا ـ بأن الحياة نفسها عسير عليها أن تعيش ليلا دائما أو نهارا دائما ، أن تعيش معدة الانسان دائما على (الحلو) أو أن تعيش دائما على (الملح) ٠٠ أن يظل الانسان ضاحكا أبدا أو أن يظل حزينا باكيا أبدا ٠٠ انها دائما بين هذا أو ذاك فى حركة ديالكتكية واضحة ٠

انها ليست نوعا من التناقضات التى أشار اليها أرسطو بحيث يستحيل التوحيد الاندماجى التكاملى بين أطرافها ، فاذا كان من المستحيل منطقيا عند أرسطو أن يكون الانسان قائما قاعدا فى آن واحد ، وأن أكون فى مكانى هذا الذى أكتب فيه هذا المقال بمكة المكرمة وأكون فى نفس الوقت فى منزلى بالقاهرة ، فانه ليس من المستحيل منطقيا أن يقوم نظام المجتمع بحيث توفر فيه للمواطن فرصة ممارسة حرياته دون أن يتركه تحت تهديد الجوع والتشرد ٠٠ ليس هذا مستحيلا منطقيا لأن هذا هو ما أصبحت بعض المجتمعات تسعى اليه الآن ٠٠ ان بعض الدول الرأسمالية وخاصة الكبرى ، قد أكدت لها التجربة الاجتماعية والتاريخية أن الحرية وحدها لا تكفى فأخذت تظهر تنظيمات للتأمين والمعاشات عند العجز والاضرابات والبطالة والاعانات والضمان الاجتماعى ، وغير هذا من اتجاهات تعكس روحا اشتراكية ٠ وها نحن أيضا نسمع من بعض الاحزاب الماركسية نقدا لأصولها وتعديلا وتطويرا حيث تراجع البعض الآن عن فكرة (ديكتاتورية البرولتياريا) ، وفى الصين نسمع عن (انفتاح) تناقلته وكالات الأنباء ٠٠ وهكذا ٠

ان عبد السميع يستدرك بقوله : « ليس القصد أن نفصل بين المصرية والعروبة أو حرية الفرد وحرية المجتمع وغيرها من الثنائيات » ، ثم يطرح التساؤل الكبير : « كيف نجمع بين تلك الثنائيات » ؟ ص ١٦٧ ، وهذا نفسه هو الذى نطرحه ٠٠ فنحن لم نقدمها فى صورة (تجميعية) أو (تلفقية وانما بينا ضرر الاقتصار على واحد ، منها دون الأخرى ، وبالتالى فما سقناه ، انما هو (جدول أعمال) لمشروع يحتاج الى نقاش والى بحث ولا أستطيع أن أزعم أننى وحدى أملك الحل النهائى ٠

ان الحل ـ كما نؤكد دائما ـ يكون بالحوار والجـــدل والنقاش بين مختلف الاطراف ، أما أن يطرح هذا أو ذاك رأيا ثم يمضى فى طريقه بحيث يكون رأيه رجع صدى لصوت آخر أصلى انطلق من مجتمع آخر ، فتلك تبعية قد لا تقل خطورة عن صور الاحتلال العسكرى والنفوذ السياسى أو السيطرة الاقتصادية ٠

ومن هنا ، فقد كان اقتراحنا الذى لم يحظ بتقدير عزيزنا عبد السميع وهو مشروع فلسفة تربوية على المستوى القومى حيث قال أننا لو تركنا الأمر لاجتماعات مثل تلك التى اقترحناها « نتوقع خليطا عجيبا من الآراء المتباينة أشد التباين من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، فما بالنا أن حاولنا حشد كل الآراء فى المجتمع على اختلاف طبقاته » ص ١٦٧ ٠

ويبدو أن فكرتنا لم تكن واضحة كل الوضوح لصديقنا العزيز ٠ اننى أتفق معه فى أن (الفلسفة) ليست مجرد رداء يخلعه الانسان بفعل ارادى على مجتمع ، وانما هى صـــياغة فكرية محـــــركة لمجتمع بأسره فى كليته وعمومه ٠٠٠ ومن هنا يتضح لنا :

أن ليس لفرد اذن من الافراد أن يجلس ليكتب على مكتبه محددا بنفسه الفلسفة التى يسير عليها مجتمع ما ٠٠

فاذا أضفنا الى ذلك حقيقة أخرى وهى أن العلة الحقيقية فى انتقاد فكرنا التربوى لهوية خاصة ، هو افتقاد مجتمعنا لمشروع حضارى شـامل ينتظم مجالاته ونظمه وحركة سيره ، فان لنا أن نتساءل : وكيف اذن نصل الى هذا المشروع الحضارى ؟

ها هنا برزت فكرتنا ـ كمثال ـ فى مجال التعليم ٠٠ أن تطرح مشكلاته وقضاياه ، وتجرى حولها وفيها الدراسات والبحوث ، ويدور حولها الحوار والنقاش ٠

ان أمامنا اذن ركيزتين :

الأولى : دراسات متخصصة متعمقة لـ (واقع التعليم المصرى) ٠

الثانية : الحوار والنقاش الجماعى حول هذه الدراسات ٠

ليس المراد اذن هو مجرد (نهضة تعليمية) كما فهم عبد السميع ، وانما هو محاولة لـ (تشفية) جهود علمية واجتماعية وفكرية ، والاتفاق على خطوط فكر عام بحيث لا يقوم هذا الاطار الفكرى العام على مجـــرد (سبحات) فكر محلق فى أجواء الخيال والنظر ، ولا يقوم على مجرد الجهد الفردى بأى حال من الأحوال ٠٠

لقد قدمنا هذا المشروع فى أول عام ١٩٧١ فى خطاب مفتوح وجهناه لرئيس الوزراء فى ذلك الوقت (الدكتور محمود فوزى) ، وها نحن فى عام ١٩٨٦ ، ولا خطوة من هنا أو هناك ، لأن الذى يحكم تفكيرنا وجهدنا هما تلك الآفتان ٠ الفردية الفكرية ـ التفكير الخيالى النظرى ٠ وياليت الفردية الفكرية تقوم هى نفسها على الابداع والذاتية ، وانما هى فى أغلب الأحوال ـ كما قلنا ـ رجع صدى ، وما القائل أو الكاتب الا (وسيط) يسمعنا كلام غيرنا !!

ويمكن لنا أن نضرب أمثلة لعدد من الأفكار ، لا أريد أن أقول أنهـــا (خاطئة) ، اذ لا أزعم لنفسى ـ كما ذكرت فى البداية ـ امتلاك معاييـــر الحقيقة الكاملة ، وانما أقول أنها أحـــكام غير موفقة وذلك لانطلاقها من موقف فكرى مغاير تماما لموضوعها :

فعبد السميع ـ مثلا ـ يتحدث عما كتب فى مجــــال الفكر التربوى الاسلامى على أنه (تراث) كما ذكرنا دون تفرقة ، وفى ذلك مزلق خطير لأنه يساوى هنا بين (المطلق) و (النسبى) ويحكم عليها بمعيار واحد ٠٠ يساوى بين (البشرى) ولـ (الالهى) ، ومن هذا المزلق يمكن أن تقع أخطاء لا أول لها ولا آخر نكتفى هنا بالتلميح دون التفصيل للامر فى مجمله دون

التطرق الى جزئياته ٠٠ ففى ص (١٢٨) يقابل بين موقفين : اما الأخذ بفكر الغرب أو التبحر فى (التراث) ، فاذا فرقنا بين (التراث) و (أصـــول العقيدة) كما تبدت فى القرآن والسنة ، فان المشكلة لا يكون لها وجود لأنه ـ فى نظر المسلم ـ لا اختيار بين غرب وعقيدة !! وانما يمكن أن تكون هناك مقارنة واختيار بين رأى (روسو) و (الغزالى) ، بين دوركايم وابن خلدون ٠٠ فلا جناح على لو فضلت رأى روسو على الغزالى أو دوركايم على ابن خلدون لكن يستحيل على أن أظل مسلما لو قارنت وحـــاولت الاختيار بين (رأس المال) والقرآن ، فيما يطرحه هذا أو ذاك ؟!

وهكذا تأتى معظم ـ ان لم تكن كل ـ اشارات عبد السميع للتراث : ص ص ١٣١ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ٠٠ الخ ٠

وبسبب نفس المنطلق ، نجد عبـــد السميع وهـــو يبحث عن قدرة (الاسلاميات) على تحدى الفكر التربوى الغربى ، نجده ـ وأرجو ألا يغضب لاختيارى هذه الكلمة ، اذ أنها فرضت نفسها فى التو واللحظة على فـكرى فآثرت أن أكون صادقا معه ومع نفسى ـ (يصطاد) أمثلة لابد أن تنتهى الى الحكم الذى يريده بداية ٠٠ ان أمامى الآن (دولاب) ملابس غير محـــكم الغلق مهتز الجوانب ، ومن ثم من الممكن أن يقوم انسان بالبحث فى أماكن أخرى عن (دواليب) مماثلة لينتهى الى الحكم بأن (الدولاب) أصـــلا لا يستطيع القيام بتلك الوظيفة التى نريدها وهى أن يكون مكانا لحفظ الملابس، دون أن يدرى ـ أو لعله لا يهتم بذلك ـ أن هناك أمثلة أخرى ، وهى الاكثر، تقوم بوظيفتها خير قيام ، وأن الخلل القائم يمكن أن يعالج ولا يهدم وظيفة الدولاب !!

فعبد السميع مثلا ، يضع خاصية من عنده بأن الكتب التربوية تعاملت مع (التراث) ـ مع تحفظنا على الكلمة وتعميمها ـ على أنه نتـــاج فترة تاريخية واحدة ويسوق مثالا لذلك ٠ كتاب تاريخ التربية الاسلامية للدكتور أحمد شلبى ٠٠ ترى ماذا لو كان وضع فى الاعتبار أيضا ـ مثلا ـ دراسة خطاب عطية عن التعليم فى مصر فى العهد الفاطمى الأول ، والعـــديد من البحوث والدراسات التى أختصت بمفكر واحد ٠ ابن سينا ، الغزالى ، ابن خلدون ، اخوان الصفا ٠٠ وغيرهم كثيرون ، والفكر التربوى فى (الأندلس

والفكر التربوى فى عهد المماليك البرجية وكلتاهما لعبد البديع عبد العزيز عمر ٠٠ وهكذا ؟ !

ولا أريد أن أذكر أمثلة أخرى ذكرها عبد السميع أعتقد أنه لا يخفى عليه أن هناك غيرها كثير ، أقوى وأدق علمية وأوفى دراسة ، فهل قصد أن يصوب معوله الى بعض الاشجار التى يعلم أنها هشة لتسقط أمامه بسرعة فيسعد بذلك معلنا أن هذا النوع من الاشجار لا يصلح أن يستظل بظله انسان حتى لا يقع على رأسه ؟ !

ومن ناحية أخرى ، وهو بصدد مناقشة وعرض بعض محاولات الحلول، يختار أمثلة ، موضوعها (تراثى) ، لكنها مما تم فى دائرة اليسار العربى ، لا اعتراض على ذلك ، وليست محاولات الدراسة احتكارا لأحد ، لكن : هل يجوز لي أن أعتمد فى موقف الفكر العربى من المـــادية التاريخية أن أقصر أمثلتى على كتابات سيد قطب ومحمد قطب ومحمد البهى ومحمد الغزالى ؟ قد يكون ذلك أمرا هاما ، ولكن ألا تقتضى (الموضوعية) أو الحد الادنى منها البحث أولا عن القضية عند أصحابها ؟ هل يجوز للقاضى أن يستمع الى شهود النفى دون شهود الاثبات ؟ وهل يجوز للقاضى أن يستمع الى آراء من (سمعوا) أو (قرءوا) عن الحادث أو الواقعة فقط ؟ هل يكون لنا العذر اذن ، اذا طلبنا (رد) القاضى ؟ !!

وعلاقة ثورة يوليو ١٩٥٢ بالدين كما أشار اليها عبد السميع ص ١٥٠ تحتاج الى كثير من المراجعة ، فالحكم فى مصر خاصة فى فترة الثورة كان يريد من علماء الدين فكرا مسايرا دائما غير ناقد ، ومن هنا فاذا رأينا كتابات تظهر بعد القوانين الاشتراكية تربط بين الاشتراكية والاسلام ، فلان الدولة لم تسمح الا بتلك الكتابات ، وكانت هناك غيرها لا تفعل ذلك بل تستنكره ، وأصحاب هذه الكتابات كانت كتاباتهم تصادر أو يرمى بهم فى غيـــاهب السجون حيث يرون من صور التعذيب ما يقف العقل أمامه أحيانا غير مصدق أن يحدث هذا ٠ ثم ان التيار الذى كان لا يريد المسايرة ويريد موقفا نقديا ، ضرب سنة ١٩٥٤ و ١٩٦٥ ٠٠ ولو أنصف عبد السميع وأشار الى مثل هذا لخفت مسحة (الادانة) التى تفوح رائحتها من بين السطور ٠

وفى هذا الجزء (ص ١٥٠) يهمنا بعض التصحيحات :

فصديقنا يذكر أن الفكر القومى انحسر بالانفصال سنة ١٩٦١ ، ويبدأ الهجوم على الالحاد والشيوعية ٠٠ ثم تصدر قوانين يوليو الاشتراكية ٠

والصحيح أن الانفصال حدث بعد قوانين يوليو ، ومن ثم تحتاج الأحكام الى مراجعة ٠ والهجوم على الشيوعية لم يبدأ بعد الانفصال ، وانما بدأ يخف ويهدأ ، وذلك أن ما يريد عبد السميع الاشارة اليه ، فهو ما حدث عام ١٩٥٩ عندما بدأ المد الوجودى العربى يزداد فوقف خورشوف يسخر منه ومن زعيمه عبد الناصر وحارب شيوعيو العراق اتجاه ثورتها فى يوليو ١٩٥٨ نحو الوحدة مع مصر وسوريا ، فكانت تلك الحملة الضارية من عبد الناصر على كافة الماركسيين ٠

ولم يظهر الحلف الاسلامى عام ١٩٦٥ ، وانما بدأت الدعوة له بعد حرب ١٩٥٦ وبداية ظهور المد القومى ، فحاولت ثورة يوليو أن تقوم بعمل مضاد فأنشأت ما سمى بـ (المؤتمر الاسلامى) تولى مسئوليته أنورالسادات وأنشىء (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية) يقوده أحد ضباط المخابرات (!!) وهو محمد توفيق عويضة ٠

وما أشار اليه عبد السميع فى ص ١٥١ من (أسلمة) بعض العلوم ، لم يكن مجرد رد فعل لهزيمة ١٩٦٧ ، فالكتب التى ظهر فيها هذا لم تنتشر الا بعد (المد النفطى) بعد أنتصار أكتوبر ١٩٧٣ ، وبالتالى ، فان المرجع فى ذلك كان مسايرة من المتعاقدين الذين تدفقوا على الجامعات السعودية فى حقبة السبعينات وأوائل الثمانينات ٠

فاذا ما انتقلنا الى التعامل مع الطرف الآخر وهو (الغرب) فقد كنا نود ألا يكون (غربا سياسيا) بمعنى اقتصاره على أوربا الغربية والولايات المتحدة ، وانما (غربا حضاريا) بحيث يضم الى ما سبق ، مجموعة الدول الاشتراكية ، فها هنا تكون الصورة أكمل وخاصة اذا ربطنا حركة الفكر بالمتغيرات السياسية ، وهو ربط حيوى وضرورى لصحة التشخيص وعلمية الدراسة وموضوعية التفسير ، وخاصة فى بلاد العالم الثالث حيث ترتبط حركة المجتمع كلها بارادة القيادة السياسية أيا كان توجهها ٠

فسيادة البراجماتية فى الفكر التربوى ، لم تقتصر على مصر وحدها أو البلاد العربية وحدها ، بل لقد شمل مناطق كثيرة فى العالم لأسباب كثيرة من أهمها ، الوزن السياسى الذى صار للولايات المتحدة عقب الحرب العالمية الأولى حتى لقد استعان الاتحاد السوفيتى نفسه بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ بجون ديوى !

وهناك أسباب ترجع الى ديوى نفسه كفيلسوف ، وهناك فترات تاريخية نجد فيها فيلسوفا يبز غيره فى عصره ، ومن ثم يسيطر فكره على مناطق كثيرة كما حدث بالنسبة لأرسطو وبيكون وديكارت وكانط وغيرهم ٠

وهناك سبب هام : وهو أن ديوى ربما أكثر من أى فيلسوف آخر قد وثق العلاقة بين الفلسفة والتربية حتى لقد غلبت دراساته الثانية على الأولى، بينما كانت التربية تجىء - غالبا - كعمل ثانوى وجهد تكميلى لمعظم الفلاسفة ، ومن ثم فمن الطبيعى أن تذيع آراؤه وتسيطر على مساحات واسعة من الفكر التربوى ٠

وبالطبع هناك موقف التبعية فى مصر للغرب ، وارسال البعثات التربوية بصفة أساسية الى الولايات المتحدة ٠

لكننا نجد التيار يتغير بدءا من الستينات ، اذ تفرض القيادة السياسية الفكر الاشتراكى ، ومعظم من كان فى ساحة الفكر التربوى قد رضعوا من ثدى البراجماتية ، فماذا يفعلون ؟ لابد من محاولات (توفيق) غلب عليها مع الأسف الشديد (التلفيق) كما أشار عبد السميع بحق ٠

لكن البعثات التى بدىء فى ارسالها الى الكتلة الشرقية وهذا (الزخم) من الكتابات الاشتراكية فى الستينات بدأت ثماره تظهر فى السبعينات وحتى الآن متمثلة فى ظهور تيار يسارى واضح وكتابات اشتراكية فى فكرنا التربوى لا أدرى لماذا تجنب عبد السميع دراستها حتى تكتمل الصورة ؟

وليسمح لى صديقنا العزيز أن ألفت نظره الى أن قوله بالتراجع الأمريكى عن آراء ديوى منذ الخمسينات صحيح ، لكن مما لا يقل عن ذلك (دراسات تربوية)

صحة ، أنهم قد بدءوا مرة أخرى يعودون اليه منذ السبعينات وان كنا لا نقصد أنه قد عاد بنفس القوة والسيطرة التى كانت له من قبل فهناك تيارات وأفكار أخرى تولدت عن الظروف الجديدة قد أصبحت تمثل مكانا قياديا مرموقا فى مسيرة الفكر التربوى عامة ٠

وكاتب هذه السطور يذكر أنه عندما كان فى مهمة علمية سنة ١٩٨١ عرف جمعية تربوية كبيرة باسم جون ديوى انضم اليها وهى تعقد مؤتمرا سنويا تقدم فيه أبحاث عديدة بعضها يتناول فلسفة ديوى التربوية !!

وبعـــد ٠٠٠

لقد كانت دراسة عبد السميع بالفعل دراسة دسمة ثرية مثيرة ، وكنت أتمنى لو قد أطلق العنان لقلمه ليبوح بكل ما فى فكره وصدره ، فانا أعلم عن عبد السميع قدرة يحسد عليها على دعم اغضاب أحد ، لكنه ورغم أنفه قد استخدم منهج (التوفيق) بين أن يقول الحق وبين ألا يريق وما يثير الصياح عليه والصراخ والعويل ٠